

على هامش مهرجان «المرتب» الشعري

الشعر والحضارة

بقلم الدكتور محمد النويهي

سبقتها فسي ميادين الحضارة المعاصرة امم اخرى .
وها نحن اولاء ننظر في واقع امتنا ، فماذا نجد ؟ نجد
- بكل صراحة - اننا لم نستكمل أسباب الحضارة
الجديدة في اي بلد عربي ، على تفاوت بين بلادنا في مدى
اقتربنا من هذا التحقيق ، ونجد اننا ما زلنا نحفظ
بقدر غير قليل من البداوة الجاهلية ، ايضا على تفاوت في
القدر الذي نتشبه به من تلك البداوة . ونجد هذا القطر
الذي ترعرعت فيه حضارتنا القديمة ، بين أشد بلادنا
تشبها بالبداوة السحيقة وتباطؤا في اللحاق بالحضارة
الحديثة .

ونحن - بكل بساطة - نريد لامتنا العربية في متعدد
اقطارها ان تتحضر بالحضارة الجديدة وان تستتم هذه
الحضارة ، على فهم واع حصيف بالعناصر النافعة منها ،
وعزوف عن الجرائم الضارة فيها ، فان اغلب ما أخذناه
من حضارة الغرب المعاصرة هو غناؤها التافه وبهرجها
الطالح . نحن نريد هذا لان معركتنا الحقيقية مع العدو
الذي يعيق انطلاقنا ، ويتهدد مجرد بقائنا ، ليست
معركة سياسية او عسكرية ، بل هي اصطراع حضاري ،
بكل ابعاد هذا المصطلح ، المادية والمعنوية .

وهذه حقيقة اليمه لا يزال الكثيرون منا غير قادرين
على استجماع شجاعتهم لمواجهة الاعتراف بها . لكني
لن اطيل الحديث عنها ، فقد كتبت في التدليل عليها
عددا من المقالات نشرتها مجلة « الآداب » البيروتية (١) .
لكن دعنا الآن ننظر في الوظيفة التي نريد لشعرنا المعاصر
ان يقوم بها في مواجهة تحدياتنا الراهنة . وربما يعيننا
في استبصار هذه الوظيفة ان نفهم الكنه الحقيقي لتلك
المعركة التي دارت على هذه البقعة من الارض في القرن

« الشعر والحضارة » هذا الشعار الذي اتخذ
لمهرجان المربد الشعري ، يصعب عليّ ان اجد شعارا
اجود منه تركيزا للاماني التي يجيش بها وطننا العربي في
مرحلته الراهنة ، ولا ادق منه تعبيراً عن الوظيفة التي
نريد لشعرنا المعاصر ان يقوم بها لتحقيق هذه الاماني .
وهذا المكان الذي اتخذ للمهرجان قرب مربد البصرة
القديم في أرض العراق ، لست اعرف مكانا اقوى منه
رمزا الى طبيعة المعركة التي نحتاج الى خوض غمارها
لتحقيق تلك الاماني ، في هذه الفترة التي تستدبر فيها
امتنا العربية عهدا تكافح في ازالة مخلفاته ، وتستشرف
مستقبلا تجاهد في تدعيم مقوماته . ففي هذا المكان منذ
ثلاثة عشر قرنا من الزمان تصادمت كتائب البداوة القبلية
النازحة من شبه الجزيرة الصحراوية ، مع طلائع الحضارة
الاسلامية التي بدأت تستقر في سواد العراق ، في معركة
حامية ، سياسية واجتماعية ، وفكرية وفنية . وحين
انجلى غبار المعركة كانت أرض العراق قد تم احتضانها
للحضارة الجديدة التي جاء الاسلام يحث العرب عليها ،
ويدفعهم اليها ، قاستقرت في العراق دعائمها ، واستوت
على سوقها ، حتى استطاعت ان تقدم لتراث الانسانية
الباقي واحدة من انضج الحضارات التي شهدها التاريخ ،
وأحفلها بشار التقدم المادي ، والعمق الفكري ، والازدهار
الفني .

لكن دار الزمن ، واذا بالاممة العربية تنتكس عن
حضارتها ، وترتد الى بداوتها ، في اكثر مجالاتها ، المادية
والروحية ، السياسية والاجتماعية والثقافية ، على حين

(✕) هذا المقال هو القسم الاول من الدراسة التي القاهها
الدكتور النويهي تعليقا على قصائد الامسية الشعرية الاولى من مهرجان
المربد الشعري الذي عقد في البصرة (من ١ - ٥ نيسان ١٩٧١) .
ونستد عن عدم امكان نشر الدراسة كاملة لان ذلك يقتضي نشر القصائد
المنقودة التي سبق لعظمها ان نشر من قبل .

(١) « والآن ... الى الشورة الفكرية » ، فبراير ومارس
١٩٧٠ . و « نحو ثورة في الفكر الديني » ، مايو ١٩٧٠ .

الأول الهجري ، وبهذا نربط حاضراً بماضينا ، ونستنبط من ذلك الماضي دروساً تهدينا في صراعنا الحاضر .

كان الإسلام قد جاء إلى العرب وهم أخلاط من القبائل المتنافرة ، تمزقها العصبية والاحن ، وتحيا في معظمها حياة بدوية تقوم على الضروري والحاجي . ولا شك أن أهم الأول للإسلام كان هدفاً دينياً عفويًا ، هو أن يحررهم من عبادة الأوثان ويقنعهم بعبادة الإله الواحد الأحد الذي لا يرى . لكننا نخطئ إذا فهمنا الإسلام بالمعنى الضيق الذي كان مفهوماً من كلمة « الديانة » حتى ذلك الوقت . فإن الإسلام منذ بدئه كان يستهدف نظاماً أكبر شمولاً ، نستطيع أن نجمله في قولنا أن الإسلام أراد أن « يحضر » العرب ، أن ينقلهم من طور المجتمع البدوي إلى طور أعلى وأكثر تقدماً في مراتب الاجتماع البشري ، في كلا جانبي الروح والمادة . ولكي ينجح الإسلام في هذا العمل كان عليه أن يجمع شملهم المتمزق في وحدة سياسية ، وكان عليه أن يغير الأساس المادي الذي قام عليه مجتمعهم البدوي ، وهو الأساس الرعوي ، فيفتح لهم مجالاً أكثر غنى اقتصادياً ، وكان عليه أن يتيح لهم المقومات الثقافية التي يستكمل بها البنيان الحضاري الجديد .

وقد حقق الإسلام أهدافه الثلاثة هذه جميعاً ، بأن حارب عصبية القبيلة وعنجهية البدوية ، وسعى في ضم شملهم في أمة واحدة تقوم على أساس « الإيمان » ، أي على أساس فكري يحل محل القرابة الدموية ، الحقيقية أو المتخيلة ، التي تمثلوها في الأنساب القبلية . وبأن نقل أعداداً عظيمة منهم من الصحراء التي لم تكن تصلح في ذلك الزمان إلا للمعيشة القبلية إلى الأقاليم الخصيبة المفتوحة . وأخيراً ، وليس آخراً ، بأن مزجهم مزجاً قوياً ، سلالياً وثقافياً ، بأهل تلك الأقاليم المفتوحة الذين كانوا قد سبقوا عرب ذلك الزمان إلى الحضارات العريقة . وحين مزج الإسلام العرب بغير العرب فقد أقام هذا المزج على مبدأ المساواة المطلقة ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وأكرمهم عند الله أتقاهم - لا أعربهم .

لكن قوى البداوة الجاهلية شنت على الإسلام حرباً هوجاء ، وكان الشعراء الجاهليون حملة لواء المعارضة ، إلى درجة ترى آثارها في حملة القرآن عليهم . ولم تكن تلك الحملة بسبب احتقار الإسلام للشعر أو الفن بعامية ورغبته في اقتلعه من نفوس العرب كما ادعى عليه بعض أعدائه ، بل محاولة منه في تغيير النظام القبلي الذي كان أولئك الشعراء أقوى دعائه ، وأبلغهم في إذاعة قيمه ومفاهيمه . وحتى حين أسلم هؤلاء الشعراء أسماً ، فقد احتفظ كثير منهم في صميم نفوسهم بتلك المفاهيم والقيم ، وظلوا يتفنونها في طول القرن الأول الهجري . وحين حل العرب النازحون من الصحراء في المشارف المطلقة على العراق الخصيب ، كانت منازلهم في أول أمرها

مجرد حلل قبلية تسكنها قبائل لم تنزل على درجة كبيرة من تفرقها وتباغضها . يروي الرواة القدامى أن أهل الكوفة كانوا في آخر عهد علي - كرم الله وجهه - قبائل . فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فينادي باسم قبيلته : يا للنخع ! أو : يا لكندة ! فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لتميم ! و : يا لربيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها ، فتسل السيوف وتثور الفتنة .

أولئك قسوم لم يدركوا غرض الإسلام حين جاء يحملهم من باديتهم الصحراوية إلى حضارة العراق الخصيب . أولئك قوم آثروا أن يظلوا أعراباً جاهليين على أن يصيروا عرباً مسلمين . وليس أدل على تغفل الروح القبلية فيهم من تلك القصة الأخرى التي يروونها عن رجل من الأزدي حج إلى مكة وطاف بالبيت الحرام وهو يدعو لآبيه . فقيل له : لا تدعو لأمك ؟ قال : أنها تميمية !

نحن نضحك الآن حين نقرأ أمثال تلك الأخبار . ولكن ... نحن العرب المعاصرين ، هل ارتقينا على مستوى أولئك البدو القبليين إلى الدرجة التي تجيز لنا السخرية منهم ؟ ألا تزال أنحاء كثيرة من وطننا العربي تمزقها النعرات القبلية الضارية ، والانقسامات الطائفية البغيضة ، والنزعات الإقليمية الضيقة ؟ أو لا يزال وطننا المذبذب مفكك الأوصال شديد البعد عن الوحدة المتفتحة ؟

لقد شهد مرشد البصرة كثيراً من تلك الأخبار المضحكة المبكية . شهد تراجز الرجاز ، يفخر العجليون منهم بريعتهم ، ويفخر السعديون منهم بتميميتهم ، ويتبارون جميعاً في حشد الألفاظ الجوشية التي قل أن نجد لجفاوتها نظيراً في الشعر الجاهلي نفسه . بل كان انشادهم لأراجيزهم مباراة في الإغلاظ . يروى عن أحدهم أنه كان إذا انشد أراجيزه أزيد ووحش بشيابه أي رمى بها . (وكم من شعرائنا العموديين لا يزالون يبالبون في الجأر بأصواتهم وعلك أشداقهم والإشاحة بأذرعهم حتى ليخيل إلينا أنهم على وشك الأزباد والتوحيش ، فيستجيب لهم كثيرون من المستمعين بالتصفيق الحاد والاستحسان والاستعادة !) .

كذلك شهد المرشد ذا الرمة ينشد أشعاره التي تفوق أشعار الجاهليين أنفسهم أمعانا في التشبث بالبداوة . وشهد الفرزدق وجريراً في نقائضهما يؤججان نيران العصبية ويحييان ذكرى الوتيرات الجاهلية وينهشان الأعراض في بذاءة وافحاش ينذر - مرة أخرى - أن نقرأهما في دواوين الجاهليين .

ماذا كان يفعل هؤلاء في حقيقة أمرهم ؟ الحق أن البداوة ، ممثلة في أمثالهم ، كانت تفرغ جعبتها وتستنفد آخر طاقتها في معارضة قوى الإسلام المحضرة . لكن

المربد شهد أيضا أشياء أخرى جاءت تؤذن بحلول عهد جديد . شهد جريرا نفسه يبلغ في نسبه الافتتاحي درجة جديدة من الرقة والسيولة نرى فيها اثرا بينا لاسلوب القرآن العذب المتسلسل ، وتبشيرا بما سيلبي من شعر يتعمد قائلوه نبد الفاظ البداوة المفلظة وتراكيبها الخشنة الوعرة ويبلغون بالاسلوب الشعري آفاقا متعالية من السهولة والعصرية . كما شهد الفرزدق نفسه يعيب على ذي الرمة انشغاله عن الاحداث السياسية العظيمة للعصر وانحباسه في البكاء على الدمن ونعت الاسبوال والبعر ووصف الناقة والديمومة . ثم شهد المربد غلاما من الموالي سيصير امره الى ان يكون اول المحدثين ، وهو بشار بن برد . وفي البصرة ترعرع غلام آخر من الموالي قدر له ان يكون اعظم علم على الثورة الجديدة ، الاجتماعية والفنية معا ، وينعقد الاجماع على كونه زعيم الشعراء المحدثين ، وهو أبو نواس .

دروس المربد القديم : وظيفة شعرنا المعاصر

ولا حاجة بنا في هذه المجالة المختزلة الى ان نمضي في تتبع نمو الشعر الجديد الذي احتضنته العراق ونضج في حضارتها الزاهية . ولنقفز من تلك المعركة التجديدية الاولى التي شهدتها تاريخ الشعر العربي الى المعركة الاخيرة التي دارت حول شعرنا الجديد المعاصر ، لنلاحظ انه كان للعراق ذلك السبق القديم في رعاية التجديد الشعري ، كذلك كان له السبق في عصرنا في هذه الحركة التي بدأت على ايدي نازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي (1) ، حين تتابع ثلاثتهم في اواخر الاربعينات واول الخمسينات من قرننا هذا ، فقاموا في العراق الذي تحول اخصابه اجدابا ، وصار أكثر عمرانه خرابا ، والذي عاد فابتلعت العصبية القبلية ، والاحن الطائفية ، والفرقة السلالية - ذلك العراق الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار ، واقدام الاقطاع والراسمالية ، ويختنق في قبضة الرجعية الشاملة ، الدينية والاجتماعية والفكرية . قام ثلاثتهم فبدأوا الصيحة التي سرعان ما تجاوزتها اركان الوطن العربي ، حربا على تلك المخلفات الذميمة من قرون الانحلال ، ودعوة الى تحرر العرب من عهود الجهالة والجمود ، وحضا لهم على معايشة عصرهم ، وللحاق بركب الحضارة الجديدة التي تخلفوا عنها . وبعد معركة مريرة مع قوى الجمود والتحجر ، تعرفونها جميعا ، ولا تزالون تسمعون اصداؤها ، تكلفت حركة

(1) اما ما يقال عن سبق آخرين ، ابو حديد وباكثير ولويس عوض وغيرهم ، فاننا اذا انعمنا النظر فيه متجردين عن الاقليمية الضيقة ، لم نجد أكثر من ارهاصات بالتيار الجديد لم تستكمل الوعي بحقيقة كنهه ، بدليل انهم لم يمضوا فيه ، وليس من تيار جديد الا تسببه ارهاصات . نقول هذا احقا للحقيقة التاريخية كما تبدو لنا بعد امعان النظر . وبعد ، فان ما يحققه شعراء أي قطر من اقطار العروبة هو مفخرة للوطن العربي كله .

الشعراء الجدد بالنصر الوثيق ، فصار اغلب ما ينتج من الشعر في كافة اطراف الوطن العربي على الشكل الجديد الذي ابتكرته تلك الحركة الانطلاقية . فما الدروس والعبر التي نستقريها من كل ما ذكرنا من المامة بالتاريخ القديم والحديث ؟ وما الذي ننتظره من شعرنا المعاصر ، وما القيم التي يحق لنا ان نتطلبها فيه ، حتى ننظر على ضوءها فيما سمعنا من شعر هذا المساء ؟

نستطيع ان نجعلها في قيم الوحدة ، والمعاصرة ، والحضارة . وما اظنني محتاجا بعدما قدمت من مقدمة تاريخية الى ان ابرهن على ضرورة هذه القيم ولزومها لتحقيق ما نصبو اليه من آمال لمستقبل الوطن العربي . لكن الذي اظننا نحتاج اليه هو تحذير من بضعة اخطاء ترتكب في تفسير هذه القيم وتطبيقها ، ورد على عدد من الشكوك التي تثار حولها . فنحن لا نعني بتحقيق تلك القيم حشد الشعارات والجار بالنداءات في نظم يناظر النظم العمودي التقليدي في السطحية والتقرير الفج ، وليس له من الشعر الجديد سوى شكل فارغ . بل نريد المعاناة الشعرية الصادقة العميقة والتعبير الفني الصحيح بوسائل الفن الاصيل ، التي تقوم على الايمان والتكثيف وتقلل من التقرير العاري . ونحن لا نلزم الشاعر بمذهب سياسي معين او بموقف ايديولوجي محدد يفضله على غيره ، لا نلزمه مثلا بالتفاؤل ولا نحرم عليه التشاؤم ، فقد يكون التعبير الشعري عن التشاؤم وسيلة ناجعة في تطهير الشاعر نفسه وتطهير قرائه بالعملية التي تسمى « كاتارس » في الاصطلاح الفني . ونزيد فنقول اننا لا نلزمه بمعالجة القضايا السياسية الصريحة ، فقد تكون قصيدة غزلية صادقة تثير في النفس محبة الجمال أنجح في حمل العرب على التآخي وتلاقي قلوبهم على المحبة من خطبة سياسية منظومة تسمى شعرا . ونحن ايضا لا نقصر الشاعر على تناول الاهداف والمشارع الجماعية ، بل نجيز له ، وننتظر منه ، ان يتناول المشكلات والهموم الفردية التي تهم الانسان العربي المعاصر من حيث كونه فردا يقف امام الفاز الكون الخالدة ويستبطن أعماق الذات الانسانية ، مثل القدر والاختيار ، والموت وما وراء الموت ، والشك والايمان ، والحب والانانية والتضحية . فان الانسان العربي المعاصر لم يعد يكتفي في كل تلك المعضلات بالمواقف الجاهزة والآراء المقررة المكررة ، وقد صار تفكيره فيها وشعوره بها الى درجة من العمق والتعقد والاضطراب والتناقض لا بد ان يعبر عنه في شعره سعيا وراء الحل والتوفيق والانسجام . فهو لذلك يحاول ان يجدد مفهوم علاقته بكل شيء ، علاقة الانسان بالاله ، وعلاقة المواطن بالوطن ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ، وعلاقة الرجل بالمرأة .

هذا بدوره يقتضينا ان نتطلب في كل شاعر أصالة متميزة ، فلا يكون شعره مجرد اجترار وتكرار لما قاله غيره من الشعراء الجدد ، ومجموعة اصدااء لما حققوه في

بنقاء اللغة لا يكون بتجميدها في قيود متصلبة ، فهذا هو الافناء عين الافناء . انما يكون الاحياء بالسماح للغة والتراث بالنمو المستمر والتجدد المتصل حتى يواكبها تطور الحياة الانسانية التي لا تكف عن التغيير . وهذا يعطي الشاعر حق التجربة المستمرة في بناء اللفظة وصياغة التركيب وتنوع الموسيقى وتطوير الشكل ، كما يعطيه حق الاستفلال الجديد لما يحفل به التراث من موضوعات وأخبار وقصص وأساطير ، بالإضافة الى حقه في تناول موضوعات وأفكار ومواقف ومشكلات تامة الجدة . وحق التجربة معناه الوحيد حق الخطأ . لسنا بطبيعة الحال مرغمين على أن نوافق الشاعر على كل النتائج التي تنتهي اليها تجربته . فان لنا الحق في التصويب والتخطئة ، لكن هذا الحق ينبغي الا يتجاوز ايدا حق النقد الموضوعي الى التجريح الشخصي والاتهام بالرغبة في هدم اللغة والقضاء على التراث وتقويض اركان القومية العربية . . الى آخر أمثال هذه من التهم التي تكال . فلننقد محاولات شعرائنا الجدد ما نشاء من نقد موضوعي خالص ، ولنترك للزمن أن يحكم أي هذه التجارب نافع يصلح للبقاء وأيها تافه لا فائدة فيه أو ضار يجب التخلص منه ، مطمئنين دائما الى صدق الآية الكريمة : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

محمد النويهي

دار الآداب تقدم

ابراهيم ناجي

قصائد

أهزارها وقدم لها

أحمد عبد المعطي مجازي

٢٠٠ ق ٠ ل

صدر حديثا

جانبى المضمون والشكل . والاصالة في اعتقادي هي السمة التي لا تخطيء على مدى صدق شاعرية الشاعر .

فاذا كنا جادين في رغبتنا في أن يعمل شعرا على دفع امتنا العربية الى المعاصرة ، حتى تتنبه الى متطلبات الحضارة الجديدة ، فاننا يجب أن ندرك ان هذا لن يتحقق اذا الزمننا الشاعر بالموافقة على كل الآراء الشائعة والمعتقدات الرائجة لدى أبناء وطنه . فقد تكون للشاعر رؤية أعمق وأبعد - بل هذا هو المنتظر منه ، والا فما معنى « شاعريته » ؟ وهذا يعطيه الحق في مخالفة تلك الآراء والمعتقدات ، وتغيير ما يرى انه يحتاج الى التغيير منها . فليس كل ما ورثناه عن قرون رجعتنا وانحللنا بالمفومات السليمة التي يمكن أن يقوم عليها فهمنا الجديد للعروبة . والكثير من المعطيات القديمة لم يعد مقبولا لدى ضميرنا الحديث ، ولا صالحا للحياة الكريمة العادلة التي نريدها لكل أفراد مجتمعنا ، ذكورا وأناثا . نحن اذن نجيء للشاعر أن ينفذ وطنه ومجتمعه ومواطنيه ، بكل ما يريد من القوة ومن القسوة ، ما دام يقنعنا بأنه لم يصدر عن مجرد حقد أو شماتة او رغبة في التشهير ، بل هو صادر عن حب عميق مخلص لوطنه ورغبة أمانة جياشة في الارتفاع بأحوال مواطنيه المادية والمعنوية . فما أكثر ما يعجب به وطننا ويكتظ به مواطنونا من النقائص والاطعاء والمخازي والجرائم المتبقية من عهود الفهر والاذلال .

ان قضية المعاصرة تستلزم قضية التجديد الشعري ، التجديد الشامل في كلا المضمون والشكل . تجديد العواطف والمواقف والافكار ، وتجديد القوالب اللغوية والانماط الالقاعية التي تؤدبها . فان المضمون الجديد لا يمكن أن يؤديه الشكل القديم اداء صحيحا تاما . بل لا بد أن تستدعي جدة المضمون تجديد الشكل الذي يحمله الى درجة تزيد أو تنقص بحسب نصيب المضمون من الجدة . فليست العلاقة بين المضمون والشكل علاقة عارضة كعلاقة السائل بالاناء الذي يحتويه ، بل هي علاقة عضوية تامة التشابك وتبادل التأثير ، بحيث ان أقل تغيير يحدث في أحدهما لا بد أن ينتج عنه تغيير في الآخر . لكننا لن ننجح في تحقيق التجديد الضروري الا اذا آمننا بأن اللغة هي ملك لنا ، نحن أهلها الاحياء الذين يعيشون الآن ، فلنا أن نصرها فيما نعتقد انه أكفل بقيامها بحاجاتنا المعاصرة وتطويرها لنهضتنا المتقدمة . ليس معنى هذا بالطبع أن نهمل تراثنا ، فما من أمة تستطيع أن تبني مستقبلا وطيدا على غير أساس متين من تراثها القومي . لكن معناه ان تكون أكبر جراحة على غريبة هذا التراث لنميز جيده وصالحه من رديئه وضاره ، فنحتفظ بالاول ونسمى دوما في احيائه ، ونبيد الثاني ونحطمه بلا رحمة ولا حنين جاهل .

لكن احياء التراث ليس معناه البقاء على قوالبه وانماطه واشكاله في صيغ متحجرة ، كما ان الاحتفاظ